الفصل الثامن

بلا .. وانجلا ..

في هذا الفصل نسرد قصة دحر الظلام وانبلاج الصبح الوطني الذي بذلت فيه المهج والأرواح.

كنا قد ذكرنا آنفا نقض النظام لاتفاقية السلام وتجدد الحرب في مايو ١٩٨٣م بشكل ضغط على النظام بخسائر كثيرة.

كما ذكرنا تفاقم المواجهة بين النظام والهيئة القضائية مما أدى لسن قوانين سبتمبر التي خلقت مزيداً من الاستقطاب إذ اتخذها النظام وسيلة للبطش بالمعارضين وتصفيتهم وقد واجهت هذه القوانين المعيبة معارضة متزايدة داخلياً، كما أعطت المقاومة في الجنوب سنداً عالمياً وإقليمياً جديداً.

وذكرنا دور افتضاح (عملية موسى) بترحيل الفلاشا، وكذلك اغتيال الأستاذ محمود محمد طه في تنامي الغضب ضد النظام.

وكان النظام قد واجه عزلة قبلها عبر انتفاضة في كردفان عام ١٩٨٠م، وإضراب السكة حديد ١٩٨١م، وانتفاضة في عدد من المدن منها الخرطوم في يناير عام ١٩٨٢م.

قبل ذلك وبعده بحثت القوى النقابية والسياسية سبل توحيد مواقفها في مواجهة النظام.

ففي عام ١٩٨٤ بلورت أحزاب الأمة والاتحادي والشيوعي ميثاقا يوحد العمل الوطني الديموقراطي للاطاحة بالنظام بين أطراف جبهة المعارضة[1].

أما النقابات فقد تنامت حركتها وسعت لتنسيق عملها ما أسفر في النهاية تكوين التجمع النقابي.

(١) كمال الجزولي رزنامة الانتفاضة

وفي أواخر ١٩٨٤م فازت في انتخابات اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية قائمة تمثل تحالف (التضامن الإسلامي) الذي ضم طلاب حزب الأمة والاتحاديين ومستقلين، وكان يقود ذلك التحالف طلاب حزب الأمة حيث كان رئيس الاتحاد هو الحبيب محمد أحمد سلامة، وفي عضوية الاتحاد الأستاذ طارق الجزولي من الاتحاديين وهو يرأس الآن تحرير صحيفة سودانايل الإلكترونية، وكان فيه كذلك الأحباب حمد الزناري، وصلاح بريمة، وغيرهم. كان هذا الاتحاد نظيفاً من (الاتجاه الإسلامي) وقد كانت هذه الجماعة منذ رجعت في المصالحة قررت الاشتراك في النظام بقلبها وربها، وصارت بعض فصائلها كتائب للنظام المايوي تحميه وتهش عنه المظاهرات في المدارس والجامعات.

وأذكر كنت حينها طالبة في مدرسة أم درمان الثانوية العليا، وكانت بعض زميلاتنا من الاتجاه الإسلامي «مخبرات» لدى الأمن نتحاشى أمامهن ذكر ما لا ينبغي للسلطة أن تطّلع عليه من أعمال المعارضة.

ولكن النميري اتخذ خطوة انفعالية فجائية ضد الأخوان المسلمين ساهمت في إحكام الحصار عليه بإفقاد معسكره لقطاع حيوي كان يساهم بفعالية في تعويق حركة المعارضة.

ففي ١٠ مارس ١٩٨٥م هجم النظام عليهم فجأة وأدخلهم المعتقلات. ولم يكونوا قد قاموا بأي نشاط معارض ولم يشتركوا في غضبة الشعب السوداني المتزايدة ضد النظام، وأذكر أن المدارس حينها كانت تقفل في الأسبوع الثاني من مارس لتتيح لطلبة الشهادة أن يمتحنوا في آخر الشهر، وحينما جئنا للمدرسة مرة أخرى للاطلاع على النتائج كانت صحيفة الاتجاه الإسلامي المعلقة في المدرسة تتحدث عن (الحكومة الرحيمة) بعد أن كان السفاح قد أطيح به، فهي آخر صحيفة كتبتها بنات الاتجاه الإسلامي في مارس ولكن بدّل الله حالاً بحال!

وبعضهم الآن يدعي أن اعتقالهم السبب في الانتفاضة كما فعل الأستاذ إبراهيم السنوسي! بينما الحقيقة أنهم لم يشتركوا في تحركات الانتفاضة وفي أحسن الأحوال كانوا يتفرجون. لكن صحيح إن ذلك الاعتقال ساهم في تذليل العقبات أمام الانتفاضة، وذلك بحرمان النظام من أكثر قطاعاته حيوية ومقدرة على إعاقة التحركات الشعبية.

مسألة اعتقال قادة جبهة الميثاق الإسلامي قبل أسبوعين من الانتفاضة لا زالت تحتاج لمعلومات أكثر لمعرفة أسبابها.

وقد سمعت على الأقل التحليلات التالية:

- التحليل الرسمي للجماعة الذي جاء في كتاب دكتور حسن مكي المؤرخ لحركتهم في الأعوام ١٩٦٩-١٩٨٥م، ويشي التحليل بأن النميري استمع لنصح الأمريكان الضائقين ذرعاً بتوجهه الإسلامي وتحالفه مع (الإسلاميين). ويذكر مكي أن جماعتهم عدّلت من موقفها من النظام منذ خطابه بمناسبة الاستقلال في يناير ١٩٨٥م، ومضت في كشف وانتقاد تهجير الفلاشا، ولكنه أكد أنه بالرغم من أنهم في اجتماع عقد مساء ٩ مارس ١٩٨٥م اطلعوا على معلومات بنية النظام البطش بهم إلا أنهم صدوها باعتبارها مبالغة أو وقيعة إذ لم يتصورا حينها أن زيارة نائب الرئيس الأمريكي للسودان حينها (مارس ١٩٨٥م) سوف تثمر ذلك الخصام[١]. ويذهب المحبوب عبد السلام نفس مذهبه قائلاً: مع تزايد الحملة السياسية والإعلامية زار الخرطوم نائب الرئيس الأمريكي يومئذ جورج بوش الأب في طريقه إلى أديس أبابا وفي سياق حملة إغاثة الجوعى في البلدين .. وبعد يوم واحد من سفره كانت الموسيقى العسكرية تعزف مارشاتها صباح التاسع من مارس ١٩٨٥م فيما يشبه اجواء الانقلاب العسكري من إذاعة أم درمان ليجيء صوت النميري معلناً خاتمة علاقته الملتبسة مع الحركة الإسلامية في خطاب مضطرب يخلط الذم بالمدح وبعد ليلة شهدت جملة من الاعتقالات الواسعة). ولكن المحبوب يرجع القرار ليس فقط للتدخل الأمريكي ولكن انزعاج النظام قبلها من الشعبية التي حظيت بها حركتهم وتنظيمها للمسيرة المليونية التي عدها نصراً مشهوداً، وقال: لم يكن السائرون في المسيرة يعلمون أنهم سيضعون النميري أمام خيار الاحتفاظ بكرسيه أو الاحتفاظ بالشريعة ورموزها ولم تكتمل المسيرة إلا وقد قر رأي نميري على أن يضع نهاية لتحالفه مع الحركة الإسلامية[٢]. لا شك أن مقدرات جماعتهم كانت متفوقة على تكوينات مايو الفوقية الأخرى التي عجزت عن

(١) انظر حسن مكي تاريخ الحركة الإسلامية في السودان ١٩٦٩-١٩٨٥م، الدار السودانية للكتب، الصفحات ٢٠٦-٢٠٨

(٢) المحبوب، مرجع سابق ص ٤٩

التمدد شعبياً، ولكن لم يكن بالمسيرة (المليونية) فتح مبين وكانت الحشود المحدودة تذهب وتلف وتدور حول قاعة الصداقة وتأتي من جديد. ولكن النظام بعد اعتقالهم لم يستطع أن يجمع لمساندته يوم (مسيرة الردع) ولا جزء من حشد المسيرة المليونية نفسه.

- هنالك تحليل الأستاذ (محجوب عمر باشري) في كتابه (أإعدام شعب؟) وفي الحقيقة هذا الكتاب عجيب من ناحية القصص الفظيعة التي أثبتها باشري حول النميري وفيه كثير من القصص واللغط الذي كان يدور في القصر الجمهوري يرجعها لتقارير أمنية. الشاهد إن باشري يقول إن النميري قد أصيب بالجنون في أواخر أيام حكمه! وتفيد القصة الغريبة والتي يذيلها الكاتب بما يؤكد أنه رجع فيها لتقارير أمنية (في الأيام ٢٥-٢٦ يناير و٢ فبراير ١٩٨٥م) أن النميري ندم على مقتل الأستاذ محمود وسخط على كل الذين دفعوه في اتجاه قوانين سبتمبر و(فكر في اعتقال الأخوان المسلمين، وأحضر كل الملفات الخاصة بعوض الجيد محمد أحمد، والنيل أبو قرون، وبدرية سليمان)[1] وتوعد بهم. وقال في نهاية كتابه (تحدثنا عن الآلام التي أصابته بعد إعدام محمود والحالة التي اعترته وفكر في أشياء كثيرة بدأها باعتقال الأخوان المسلمين وطرد عمر محمد الطيب)[2]. أي أنه إثر تلك الغضبة والندم الشديدين بطش بحلفائه الذين برعوا في تعطيل التحركات الشعبية ضده بحق.

- وتحليل الأستاذ مصعب أحمد مضوي ويقول إنه إثر افتضاح عملية ترحيل اليهود الفلاشا سعى بعض قادة جبهة الميثاق للاتصال بالعقيد أمن الفاتح عروة الذي تمت دعوته لاجتماع سري بحي الصافية بالخرطوم بحري لمناقشة أبعاد تورط النظام في ترحيل الفلاشا، وقد تمكن جهاز أمن الدولة من رصد الاجتماع السري عبر تسجيل صوتي كامل، مما جعل عمر الطيب يؤنب الفاتح عروة ثم ابتعثه للخارج، وبسبب هذا الاجتماع بادر اللواء عمر محمد الطيب لاحقاً إلى اعتقال قيادات الجبهة عندما ظهرت بوادر تضعضع النظام ومثوله للسقوط في مارس ١٩٨٥م.[3]

(١) نفسه

(٢) نفسه صص ١٧٦

(٣) مصعب، سابق ص ١٦٣

- وهنالك تحليل آخر يذهب إلى أن الأخوان أحسوا بدنو أجل النظام بناء على قراءات سياسية، فقرروا الخروج من السفينة الغارقة في آخر لحظاتها، وبطريقة الخداع المعهودة سربوا كلاما لأمن النظام من أحد اجتماعاتهم يوحي بأنهم يخونون النظام، فكانت ردة فعله المتوقعة وهي البطش بهم. هذا التحليل يمكن قراءته مع تحليل مضوي أعلاه بأن تسريب الاجتماع كان مقصوداً من قادة جبهة الميثاق. وما يرشح من كتاب الأستاذ المحبوب عبد السلام يؤكد هذا التحليل، فقد أكد المحبوب أنهم كانوا يؤمّنون الاجتماعات القيادية، ولكن الأهم حديثه التالي: (أدخل الأمين العام تعديلاً واسعاً على المكتب التنفيذي للحركة قبل أسابيع من الاعتقال، فنجت كل عضوية المكتب التنفيذي من الاعتقالات سوى رئيس المكتب الأمين العام). فالتعديلات الفجائية توحي بخطة موضوعة مسبقاً! وهذا يعني في الحقيقة أن النميري لم يعتقل من قادة الجبهة الفاعلين إلا الترابي. وبالطبع تحركات هذه الجبهة السرية والمراوغة وصلت لحد تمثيليات استمرت لأشهر كما فعلوا لدى انقلابهم وهذا التحليل الأخير يتفق مع طبيعة الجبهة ومسيرتها.

ومهما كانت التحليلات لا يستطيع أحد أن يدعي بحق صلة لجبهة الميثاق بتفجير الانتفاضة ولا بإنجاحها. أما مجرد الادعاء فقد جاء في سرديات الدكتور حسن مكي الذي قال إنهم دفعوا باتجاه فوز قرار الخروج للشارع داخل اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية وخرجت قاعدتهم برغم غلبة شباب حزب الأمة. وقال إنهم أخرجوا مظاهرات من الجامعات التي كانوا يسيطرون على اتحاداتها، وكذلك طلاب الاتجاه الإسلامي في المدارس[1]. ويرد على هذه المحاولة الآيسة في اللحاق بركب الانتفاضة أن اتحاد الإسلامية الذي سير موكب أم درمان في ٢٦ مارس كان بالأصل موجهاً ضد الاتجاه الإسلامي وقد حرّك الشارع لأنه كان اتحاداً (نظيفاً) منه فلا يمكنه التأثير على قراره، وهذا ينطبق على اتحاد معهد الكليات التكنلوجية الذي تسيد موكب الخرطوم في اليوم التالي والذي عبر عن عدائه لتنظيم الإسلامويين بحصبه واجهة بنك فيصل الإسلامي وهتافه ضد الاتجار بالدين. بعد ذلك انتقلت الكرة لملعب النقابات فلم يكن لمظاهرات أخرى تحدث عنها أثر. أما المدارس فقد كانت في إجازتها وكل طلاب

(١) نفسه

المدارس من أمثالنا إنما خرجوا مثلهم مثل بقية الشعب السوداني في المواكب العامة، وقد شهدنا وقوف طالبات الاتجاه الإسلامي في مصاطب الفرجة. ونحن نجد الاعتراف بالحقيقة كامن في حديث مكي نفسه إذ اعترف بأن قيادة الحركة عاشت أزمة في الأربعة أسابيع الممتدة من ١٠ مارس إلى ٥ أبريل متعلقة (بافتقار لمنهج مستقر لإحداث التغيير وإقامة البديل) وأن تلك الأسابيع (كشفت عن سوء تقدير الحركة لحقيقة تدهورمجمل أوضاع النظام: تصدع أمني وانهيار سياسي واقتصادي، وأن النظام قد فقد أسباب البقاء ومقوماته)[١].

المحاولة الشبيهة كانت بكلمات المحبوب الذي كرر الحديث حول اشتراكهم في تظاهرة أم درمان الإسلامية وحاول ربطها باعتقالهم مع أن المعلوم يقيناً أن الاتحاد الذي سيرها كان عدائياً للاتجاه الإسلامي، ولكن تحليلاً ساقه نعتقد بصحته لدرجة كبيرة، وهو أن كادرهم أفشل إضراب الأطباء عام ١٩٨٤م، وباستعداء النميري لهم فقد هذا الأثر في إضراب الأطباء عشية الانتفاضة، وهذا صحيح وقد سمعته من شخصية قيادية بحركتهم كانت غاضبة حينها من اعتقالهم والبطش بهم فقالت: النميري غبي، الأخوان كانوا «يحاحون» له المظاهرات في الشوارع. وهذا كان له أثر بالطبع في نجاح الانتفاضة.

لقاء الصادق الترابي الجمعة ١٥ فبراير ١٩٨٥م

في أحد أيام فبراير ١٩٨٥م، التقى السيد الصادق بالدكتور الترابي بمناسبة عقد قران أحد أفراد أسرة المهدي حضره الترابي كصهر للأسرة، وقال للصادق إني مسافر للعين لإلقاء محاضرة وأود قبل سفري أن ألقاك.

قال السيد الصادق[٢]:

(اتفقت مع حسن أن يحضر لملاقاتي بعد يومين لنلتقي صباح جمعة قبل سفره، وربما كان هذا في أواخر فبراير أو أوائل مارس ١٩٨٥ م. الحقيقة، حينما قال لي حسن أود لقاءك تساءلت في نفسي هل أدرك أنه يشارك في نظام آفل؟ ونقلت تساؤلاتي لعمر[٣]

(١) حسن مكي، سابق ص ٢٠٨- ٢٠٩

(٢) وثقت هذه الرواية منه لغرض الكتاب في ٨ أكتوبر ٢٠١١م

(٣) يعني صديقه وزميله في العمل الوطني الدكتور عمر نور الدائم رحمه الله

وقلت له ما رأيك هل أدرك أن الأوضاع ذاهبة في التردي ويريدنا أن نساعده في الخروج من مستنقع مايو؟ ثم جاءني حسن وقال لي: قبل يومين كانت لدي مهمة في لجنة كادر للدولة وذهبت أسلم التقرير لنميري ولكن حسب الطريقة التي قابلني بها فإن لدي شعور قوي أنه يريد أن يعتمد علينا في مقبل الأيام. لذلك أريد أن أعرض عليكم أن تدخلوا معنا في السلطة ولا داعي لأن تستمر القطيعة.

استغربت جداً من ذلك المنطق الغافل، وقلت له إني يا حسن كنت متسائلاً هل تريد مقابلتي لتقول لي نريد أن نخرج من هذا النظام الآفل؟ وينبغي عليك أن تدرك أن الأمور في السودان ذاهبة نحو الهاوية، وهذا النظام «رايح..رايح». وماذا تفعلون إذا ذهب؟ ألا تخاف على مستقبلكم حينها؟ فقال لي لا خوف البتة، ولو حدث تغيير فإننا سوف نحمي أنفسنا في الشارع، ولكن هذا النظام باقٍ ومستقر ولن يؤثر عليه شيء. ثم سافر العين وعاد وبعدها بأيام اعتقلوهم كلهم في ١٠ مارس ١٩٨٥م.)

وفي أجندة العام ١٩٨٥م وجدت السيد الصادق قد دون اللقاء الذي اتضح أنه تم في يوم الجمعة ١٥ فبراير ١٩٨٥م. كتب السيد الصادق التالي:

(لقاء حسن الجمعة:

١- *يعتبر نميري given.*

٢- *يعتقد جماعته كسبت ومستمرة تكسب ولا يخشى عليها من الرأي العام السلبي ما دام لها قوة ذاتية.*

٣- *يعتقد أن (نميري)[1] عمل أشياء تسخيراً.)*

ويبقى السؤال: هل كان دكتور الترابي يظن حقا أن النظام سرمدي ويريد أن (يمن) على حزب الأمة بالاشتراك معه في سطوة أعطاها إياهم النميري؟ أم أنه قرأ زواله في اللحظات الأخيرة، وأحب أن يورّط منافسه الأكبر في أي وضع ديمقراطي قادم، ظاناً منه أنه يخدعه، قبل أن يقفز من المركب الغرقان؟

الصادق حينما يروي القصة مصدقٌ لأن الترابي كان يظن النميري سرمدياً. بل هو

(١) الكلمة المكتوبة (نمر) ولكني أظنها من أخطاء العجلة.

يظن أن النميري هو الذي خدع الترابي فأوحى له بالقرب بينما كان ينوي التخلص منه[1].. وهذا بالطبع ممكن فالنميري متعود على المكر والخداع، ولكن أسلوب الجبهة القومية ليس بعيداً كذلك عن تلك الطريقة.. فكما وصف السيد الصادق حكومتهم الأخيرة: يؤشرون يمين وهم يزمعون الانعطاف يساراً!! وقراءة مشهد (رئيساً وحبيساً) الذي سوف نذكره في الجزء الرابع من الكتاب بإذن الله، ومشاهد أخرى كثيرة، لا تجعلنا بذات يقينية الصادق من أن ذلك اللقاء كان لنصح نصوح!

الشرارة الأولى

ذكرنا إن اتحاد جامعة أم درمان الإسلامية المنتخب حديثاً كان معارضاً للنظام، تسيطر عليه جبهة التضامن الإسلامي المكونة من طلاب حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي وبعض المستقلين. فتجاوب مع السخط الشعبي المتزايد وسير مظاهرة في يوم ٢٦ مارس ١٩٨٥م. وتصدت لها السلطات بعنف فظيع قتلاً وضرباً واعتقالاً فاعتقلت رئيس الاتحاد محمد أحمد سلامة من حزب الأمة، وعدداً من أعضاء الاتحاد، وأدى البطش المتوحش بالطلاب لتفجر الغضب، وبكلمات الأستاذ كمال الجزولي: فإذا بعطر أكتوبر يضوع ، بسرعة البرق ، وإذا بالشعب يغدو واضحاً أنه على أتم الاستعداد للفداء في سبيل الاطاحة بالنظام.

يوميات الانتفاضة

من أجندة السيد الصادق في تلك الأيام أنقل يوميات الانتفاضة التالية:

(الخميس ٢١ مارس ١٩٨٥م:

عباس وآخرون أفادوا أن اجتماع اللجنة المركزية بكامل هيئتها لم يسفر عن شيء وأنهم عائدون لعطبرة للتحضير لمواجهة السلطة. النصح: سيكون ذلك بموجب تنسيق.

الاثنين ٢٥ مارس ١٩٨٥م:

الهادي متحدثاً باسم أبنائنا في الاتحاد قال: سيخرجون في موكب غداً. قلت ينبغي

(١) هذا ما قاله في حلقة شاهد على العصر، الحلقة الثالثة عشرة، بتاريخ الأحد ١٨ أكتوبر.

التنسيق.

قالوا: الخط الخروج، قلت ليكن اختباراً للشارع.

الثلاثاء ٢٦ مارس ١٩٨٥م:

موكب جامعة أم درمان الذي تجاوب معه الشارع.

الأربعاء ٢٧ مارس ١٩٨٥م:

- موكب المعهد، جامعة القاهرة، معهد شمبات، تجاوب معه شارع الخرطوم واشتمل على شغب..الخ.
- سفر نميري وحصبه في الطريق.

الخميس ٢٨ مارس ١٩٨٥م:

استمرت مواكب الخرطوم ولجأ الأمن للضرب الغادر.

بيان نقابة أطباء مستشفى الخرطوم. (الإضراب من الخميس للسبت والمناشدة بإضراب عام).

الجمعة ٢٩ مارس:

وقوف الأحداث.

أمين مكي مدني: حضرت مندوباً لك من التجمع المهني. سيكون الموكب.

السبت ٣٠ مارس:

تجاوب نقابات أطباء المستشفيات الأخرى.

وهمس بموكب يوم الاثنين القادم.

موكب مدني وتقديم مذكرة من ١٤ نقابة تطالب بتصفية سلمية للنظام.

الأحد ٣١ مارس:

اجتماع أساتذة جامعة الخرطوم بعد توجيه الدعوة لاجتماع سياسي.

القرار:

(١) الإضراب.

(٢) الموكب الأربعاء القادم للتعبير عن الموقف.

اجتماعي الأول بمهدي بابو نمر في منزل حماد والتفاهم الأول: لكم دور، سنفعل شيئاً.

الاثنين ١ أبريل:

اجتماع مع توفيق خليل في منزل حماد باتصال عبد الرحمن والتفاهم على دور للقوات.

قال:

أ. القوات لن تضرب الناس.

ب. موقفها الإيجابي سيتوقف على تقويم موكبي الثلاثاء والأربعاء.

الثلاثاء ٢ أبريل:

موكب الثلاثاء:

١) عدد هزيل يمثل عصابات مايو.

٢) خطب متشنجة خصوصا أبو القاسم- أدان نميري- الرشيد- ألزم الله بنصرهم. أبو ساق نقبضهم كالأرانب نقتلهم كالعقارب..)

بعض مشاهد الانتفاضة

إن قصة الانتفاضة لم ترو بتفصيل من جميع الجهات بعد، ولكننا سوف نحاول نقل بعض المشاهد البارزة، ثم نأتي بشهادات السيد الصادق حول الانتفاضة وأهمها شهادتين: تلك التي أوردها في كتابه (الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة)، وشهادته حول الانتفاضة في الذكرى الثانية للانتفاضة في كلمة ألقاها وكان حينها رئيساً لوزراء منتخب لحكومة الانتفاضة المباركة.

كان هناك التحرك في عطبرة والذي كان فيه موكب ضخم، وقد أشار السيد الصادق

في أجندته لنصح الوفد الذي زراه بضرورة التنسيق. بل كانت عطبرة ملتهبة منذ منتصف شهر مارس.

ثم كان موكب جامعة أم درمان الإسلامية الذي سار في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس ونجد في أجندة السيد الصادق أنهم أخبروه ووافق على أن يكون اختباراً للشارع، وبالفعل كان الموكب ضخماً ووجد تجاوباً كبيراً من الشارع في أم درمان. حيث خرجوا للشارع في مظاهرة صاخبة اتجهت صوب جمعية ود نميري في أم درمان وحصبتها بالحجارة، وأحرقت سيارات كانت تقف أمام مبنى الجمعية[١].

ثم في يوم ٢٧ مارس موكب معهد الكيات التكنلوجية (المعهد الفني كما في مذكرات الإمام) وكان اتحاده يقوده تحالف بين الاتحاديين والبعثيين والناصريين[٢]، وطلاب جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ومعهد شمبات والذي تجاوب معه الشارع كذلك.

موكب الخرطوم هذا هو الذي قام بحصب النميري وهو متجه للمطار في رحلته لواشنطن التي لم يعد منها. اتجه الموكب إلى منطقة السوق العربي حيث انضمت إليه مجموعات كبيرة من المشردين و(الشماشة) والعمال والعاطلين عن العمل وجميعهم مكتوٍ بنيران الأزمة الاقتصادية ممن أسمتهم صحف النظام ب(المتبطلين والمشردين واللصوص)، وكانت الهتافات: تسقط سلطة مايو، لن يحكمنا البنك الدولي، مليون شهيد لعهد جديد، عائد عائد يا أكتوبر، مية المية شعبنا جاع وضد نميري بالإجماع. وتوجهت المظاهرات للسفارة الأمريكية وقامت بحرق العلم الأمريكي، كما اتجهت صوب مبنى بنك فيصل الإسلامي وحطمت واجهاته الزجاجية ورددت هتافات ضد المتاجرة بالدين[٣].

وكانت قوات الأمن تصدت لموكبي أم درمان والخرطوم بعنف ظهر على جثث الشهداء مما أدخل أطباء مستشفى الخرطوم في الخط[٤]. فقد أعلن الأطباء أن استشهاد

(١) محمد علي جادين، تقييم تجربة الديمقراطية الثالثة في السودان، ص ٥٧

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) مدونات الحبيب

بعض المواطنين كان نتيجة طلقات نارية من مسافات قريبة متهمين عناصر الأمن بتلك الاغتيالات، وقد استشهد في أول يومين للانتفاضة خمسة شهداء هم: عبد الجليل طه علي، وليم، أزهري مصطفى، حامد حسن محمد والطفلة مشاعر مع ثلاثين من الجرحى[1].

في يوم الخميس ٢٨ مارس كانت المواكب مستمرة ولجأ الأمن للضرب الغادر، فأصدرت نقابة أطباء مستشفى الخرطوم بياناً تدعو فيه للإضراب من الخميس للسبت والمناشدة بإضراب عام. وفي الوقت نفسه قامت نقابة المحامين بتشكيل مجموعات للدفاع عن المعتقلين الذين كانوا يقدمون لمحاكمات إيجازية، وقد وصل عددهم إلى ٢٦٥٠ معتقلاً في اليوم الرابع للانتفاضة[2].

ومساء نفس اليوم، أي ٢٨ مارس، داهمت قوات الأمن اجتماعا بدار نقابة المحامين وكانت تزمع اعتقال عدد من المحامين منهم عمر عبد العاطي، وأمين مكي مدني، سليم عيسى، مصطفى عبد القادر، وكمال الجزولي، ولكن أميناً لم يكن موجوداً، ورجال الأمن الحاضرين لم يكونوا قد تعرفوا سوى على مصطفى عبد القادر وكمال الجزولي فاعتقلوهما.

وفي يوم الجمعة ٢٩ مارس بدأ التنسيق بين التجمع المهني وبين القوى السياسية حيث كانت قد اجتمعت على مطالب، فتم لقاء بين السيد الصادق والدكتور أمين مكي مدني الذي أخبره عن نية النقابات تسيير موكب للتعبير عن مطالب الشعب السوداني، وتفاكرا حول الميثاق واتفقا على لقاء آخر يسلم السيد الصادق الدكتور أمين مكي مدني مسودة لميثاق وطني ليكون هادياً للانتفاضة، وهو ما تم لاحقاً يوم ٢ أبريل مثلما سوف نرى.

وبالفعل تم الإضراب يوم السبت ٣٠ مارس، وتجاوب أطباء في مستشفيات أخرى، وأعلنت الهيئة النقابية لأطباء مستشفى الخرطوم تمديد الإضراب ليومين تاليين، وأعلنت الهيئة العامة لأطباء السودان تبني توصيات أطباء الخرطوم بالدعوة للإضراب العام والتنسيق مع النقابات الأخرى.

(١) جادين، سابق ص ٥٨

(٢) جادين، سابق ص ٥٨

وفي نفس يوم السبت ٣٠ مارس كان موكب مدني المهيب الذي تقدمت فيه ١٤ نقابة بمذكرة تطالب بتصفية سلمية للنظام.

وفي يوم الأحد ٣١ مارس دعا أساتذة جامعة الخرطوم لاجتماع أعلنوا فيه الإضراب المفتوح ودعوا لموكب يسير في يوم الأربعاء ٣ أبريل.[١] كما داهمت قوات الأمن دار اتحاد طلاب جامعة الخرطوم واعتقلت جميع من كانوا في الدار مع مصادرة ماكينات الطباعة[٢].

وفي ٣١ مارس سعى السيد الصادق للتنسيق مع القوات المسلحة وذلك بلقاء عقد مع اللواء مهدي بابو نمر والذي قال إنهم سيفعلون شيئاً. وفي يوم الاثنين ١ أبريل اجتمع كذلك مع الفريق توفيق محمد خليل والذي أكد أن القوات المسلحة لن تضرب الناس، وأن موقفها الإيجابي سيستند على تقييم موكبي الثلاثاء (الذي أعلنه النظام للردع)، والأربعاء (الذي أعلنته المعارضة للتعبير عن مطالبها).

وفي نفس يوم الاثنين ١ أبريل في المساء عقد التجمع النقابي اجتماعاً هاماً في حديقة نادي الخريجين بالخرطوم بحري لتنظيم موكب الأربعاء (الثالث من أبريل) وتقديم مذكرة وتصعيد المواجهة وكلف السيد أمين مكي مدني بنقل تلك المقترحات للقوى السياسية[٣].

في يوم ٢ أبريل نظم النظام موكباً هزيلاً سماه موكب الردع تحدث فيه قادة النظام أبو القاسم محمد إبراهيم والرشيد الطاهر أحاديث مستنكرة. أبو القاسم قال: (إننا نواجههم بمسيرة الردع، هؤلاء تعودوا أن يطوعوا الضعفاء، هذا هو تاريخ الحزبية وتاريخ الطائفية، نحن نخرج للشعب ولم نراهم يوماً واحداً مع الشعب نحن نشاهدهم في أبراجهم يحلمون بأكتوبر جديد ونسوا أننا صناع أكتوبر)[٤]! وتوعد فيه وزير الإعلام حينها محمد عثمان أبو ساق إنهم سوف يتعقبون المتظاهرين «يقبضونهم كالأرانب

(١) مدونات الحبيب

(٢) جادين، السابق

(٣) الجزولي، سابق، وجادين، سابق

(٤) جادين ، ص ٦١

ويقتلونهم كالعقارب»[1]. أما الرشيد الطاهر بكر الذي اعتبر السيد الصادق في مدوناته أن في كلمته إدانة للنظام فقد أشار للظروف الاقتصادية الصعبة واهتمام السلطة بتخفيف المعاناة عن كاهل الشعب[2].

وفي نفس اليوم ذهب السيد أمين للسيد الصادق بمنزله حسب الاتفاق. يقول الأستاذ كمال الجزولي: وعندما وصل أمين إلى منزل الصادق، ضحى اليوم التالي، الثاني من أبريل، في سباق مع (موكب الردع)، كان الأخير يتأهب للاختفاء تفادياً لشل حركته في تلك الظروف. هكذا، وعلى عجل، سلمه أمين تصور النقابات، واستلم منه الميثاق المقترح من القوى السياسية مكتوباً بخط يده، كما حصُل منه، مثلما كان قد حصُل قبلها من القوى السياسية الأخرى على دعم وتوجيه بالمشاركة في موكب الغد، ثم اتفق الرجلان على استمرار اتصالاتهما عن طريق المرحوم عمر نور الدائم والمرحوم صلاح عبد السلام وآخرين[3].

في يوم الأربعاء ٣ أبريل سار موكب الانتفاضة الذي التفت حوله القوى السياسية والنقابية وأعلن فيه الإضراب العام والعصيان المدني حتى النصر.

الشاهد، بالفعل اختفى السيد الصادق تلك الأيام في بيت بالخرطوم، ولم نعد نره إلا هو ودكتور عمر محمولاً في المواكب التي تلت. وقد كان موكب الثالث من أبريل ضخماً مهيباً اشتركت فيه جماهير غفيرة متجهة صوب شارع القصر.. وأذكر أنني شاركت في ذلك الموكب وأذكر الهتافات الداوية: بالروح.. بالدم، نفديك يا سودان! عائد عائد يا أكتوبر.. والروح الثائرة والفدائية التي كانت تلف الجمع الغفير.

وبإعلان العصيان المدني واستمرار الانتفاضة انقطع التيار الكهربائي وتعطلت خطوط الهاتف والاتصالات والمواصلات العامة وتوقفت حركة الملاحة الجوية، وابتداء من مساء الأربعاء تحولت التظاهرات إلى الأحياء السكنية وظلت تتصل ليلاً ونهاراً حتى الساعة الثانية صباحاً[4].

(١) مدونات الحبيب
(٢) جادين، السابق
(٣) الجزولي، سابق
(٤) جادين، سابق ص ٦٢

صاغ السيد الصادق المهدي مسودة ميثاق الانتفاضة، وعكفت نقابات: هيئة أساتذة جامعة الخرطوم، نقابات المهندسين والأطباء، والمحامين، والمصارف والتأمينات الاجتماعية على مناقشة المسودة وإضافة تعديلات عليها[1].

واتفق على اجتماع مشترك بين ممثلي الأحزاب السياسية والتجمع النقابي صباح الجمعة ٥ أبريل لمراجعة التعديلات والتوقيع على الميثاق، ثم تأجّل للسابعة مساء نفس اليوم في منزل بالخرطوم، وفي ذلك الاجتماع أثار متحدث من النقابيين مسألة دور الأحزاب السياسية وأنها كانت غائبة ورد ممثل الأحزاب بأنهم قوة ثابتة ناصبها النظام العداء منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩م، وفي النهاية فض الاشتباك وتم الاتفاق على التعديلات في الميثاق وعلى دور الأحزاب والاعتراف بدور التجمع النقابي، وصيغت المسودة النهائية بخط دكتور أمين مكي مدني ووقع عليها الجميع[2]. وبعد نجاح الانتفاضة قام الدكتور أمين مكي مدني بعمل نسخة من ورقة الميثاق النهائية ووضع النسخة الأصلية من الميثاق والتي كان بخط يده بتوقيعات الجميع وملاحظاتهم في إطار زجاجي وسلمها للسيد الصادق المهدي[3]. لعل ذلك اعترافاً بدوره في صياغة الميثاق بداية.

(نص الميثاق موجود بملاحق الكتاب)

خطبة الجمعة ٥ أبريل.. الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل

تعد هذه الخطبة من أهم مشاهد الانتفاضة لذلك أفردنا لها قسماً منفصلاً..

كان السيد الصادق كما قلنا مختفياً من الملاحقات الأمنية، أسوة بالعديد من قادة النقابات والأحزاب المشتركين في الانتفاضة يومها، ولكنه اعتلى ظهر الجمعة منبر مسجد الهجرة بودنوباوي وخطب في المصلين بحديث تعبوي من الدرجة الأولى فبدأ بقوله «الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل» وتطرق للمشهد الوطني الثائر وقال «*القاعدون عن هذا الزحف المقدس قاعدون عن نداء الوطن متخلفون عن مسيرة التاريخ*»، ومن

(١) محمد سعيد محمد الحسن وقائع أطول يوم في تاريخ السودان الحديث دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ٢٩

(٢) الحسن، المرجع السابق ص ٣٣، وجزولي، مرجع سابق

(٣) الجزولي سابق

الجامع خرجت المظاهرات التي جابت أم درمان. ولم تقف المظاهرات في أم درمان حتى مساء الخامس من أبريل.

كتب الأستاذ محمد سعيد محمد الحسن وهو يؤرخ ليوم الانتفاضة (كان أخطر وأسرع ما تناقله المواطنون ظهر هذا اليوم الجمعة.. خطبة الصادق المهدي التي ألقاها في مسجد الهجرة بودنوباوي، حيث شن هجوماً مباشراً على النظام الذي جثم على صدر الوطن ستة عشر عاما)..(ورغم أن الخطبة ألقيت في مسجد ودنوباوي بأم درمان، فسرعان ما جرى نقلها إلى الخرطوم والخرطوم بحري والامتدادات، وحرص من سمعها على تسجيلها لنقلها بدوره إلى غيره من معارفه وأصدقائه).[1]

ولأهمية هذه الخطبة وتاريخيتها وقصرها، نورد نصها كاملاً:

بسم الله الرحمن الرحيم، *الحمد لله الذي يمهل ولا يهمل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وبعد-*

قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

أيها الأحباب في الدين والوطن

هذا النظام الذي يحكم السودان الآن جثم على صدر الوطن ستة عشر عاماً عجافاً ظلم فيها الناس وكذب عليهم، وأفسد الحياة الخاصة والعامة وسلط على الشعب سياط البطش والاستبداد داخلياً وجر على الوطن عار التبعية الأجنبية مهدراً السيادة الوطنية، وأثناء هذه الفترة ظل النظام يوهم الشعب بشعارات جوفاء كالتنمية والحكم الإقليمي، حتى إذا انكشفت الشعارات وبطل مفعولها تلفت محتاراً وختم حيرته برفع شعار الإسلام.

لم يطبق النظام من الإسلام إلا الجلد والقطع والصلب وترويع المواطنين. فعل ما

(١) محمد سعيد محمد الحسن **وقائع أطول يوم في تاريخ السودان الحديث**، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ١٧-١٨

(٢) سورة يوسف الآية ١١٠

فعل باسم الإسلام مع أن دين الله هو الرحمة والعدل والتعاون.. إن العقوبات في الإسلام إجراءات رادعة مقصود بها حماية النظام الإسلامي الاجتماعي الذي يقوم سياسياً على الشورى، واقتصادياً على التكافل، واجتماعياً على الإخاء. والعقوبة في الشريعة واحدة من ست وسائل لمحاربة الجريمة هي: الإيمان، والتربية، والرأي العام، والعفو، وإزالة الضرورة، ثم العقوبة.

إن النظام المايوي لم يوظف العقوبات الإسلامية في حماية نظام اجتماعي إسلامي، ولم يوظفها ضمن وسائل أخرى لمحاربة الجريمة بل طبقها مبتورة ووظفها في حماية نظام مستبد ونظام اقتصادي مستغل، ونظام اجتماعي قائم على المحسوبية. إن تجربة هذا النظام «الإسلامية» تشويه للإسلام وتنفير منه، ونهج مبتور يدخل في وعيد قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

أيها الأحباب في الدين والوطن

لقد نبهنا من هذا المنبر ومنابر أخرى للأخطاء، وكم قاومنا وكم انتفض أهلنا في الجزيرة أبا وفي ودنوباوي وفي شعبان وفي يوليو، وكم تكررت المحاولات العسكرية للإصلاح والتصحيح، وكم وقعت الإضرابات والاعتصامات والانتفاضات في كردفان ودارفور وعطبرة وغيرها، ولكن تلك التحركات لم تفلح في اقتلاع النظام ولا في إصلاحه، بل استمر كما هو مع مزيد من القهر واستخفاف بالناس وبترويج لمقولة أن الشعب السوداني استكان ورضي بالهوان و«لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ».

وها هو شعب السودان أطفالاً ونساءً، شيباً وشباباً يفجر ثورة رجب المجيدة مقدماً البرهان مرة أخرى على حيويته وإقدامه.

ولقد أسفرت شعاعات الصبح واتحدت كلمة الشعب. وكل واحد منا وواحدة مطالب بالمشاركة في إنقاذ الوطن وفي مولد السودان الجديد. **القاعدون عن هذا الزحف المقدس قاعدون عن نداء الوطن متخلفون عن مسيرة التاريخ.** قال صلى الله عليه وسلم:

(١) سورة البقرة الآية رقم (٨٥)

من لم يهتم لأمر المسلمين ليس منهم، أو كما قال. استغفروا الله.

الخطبة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[1]. والصلاة والسلام على سيدنا محمد قال: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ماء أبقى.

في يوم الثلاثاء الخامس من رجب ثار طلبة جامعة أم درمان الإسلامية بقيادة اتحادهم يعبرون عن ضمير أمتهم في رفض نظام الظلم والمطالبة بالحرية والكرامة، ثم تلى ذلك مواكب، ثم جاء موكب مدني العظيم الذي انتظم القوى المهنية والفئوية في موقف واحد عبرت عنه مذكرة قوية تدين النظام الظالم وتطالب بإقامة نظام ديمقراطي بأسلوب سلمي. ثم جاء موكب الأربعاء الثالث عشر من رجب الذي نظمه المهنيون السودانيون، فانتظم القوى السياسية والشعبية، والذي أفضى إلى إعلان ميثاق قومي لتجمع القوى الشعبية لإنقاذ الوطن. الميثاق الذي أعلن الإضراب السياسي حتى نهاية سلطة الفرد، وحدد النظام البديل الذي يطالب به شعبنا. ومنذ الأربعاء تعاقبت الأحياء في أنحاء العاصمة المختلفة، وسيقوم غدا موكب آخر في الخرطوم ليعلم الجميع أن الشعب السوداني قد اتحد وأن مطالبه قد تحددت وأنه عازم على انتزاع حريته وكرامته بإذن الله.

إن ثورة الشعب أيها الأحباب في رجب ماضية في سبيلها بعون الله وتوفيقه وعلينا جميعا تفادي المزالق، فلا نخرّب ولا نسمح لأحد أن يمزق وحدة الشعب لأغراض شخصية أو حزبية- لقد صارت حرية بلادنا قاب قوسين أو أدنى، فلنمض إلى سبيلنا حتى التحرير ثم إنقاذ الوطن، حريصين على نفي التشوهات التي لحقت بالإسلام وعلى حل مشكلة الجنوب حلاً سلمياً عادلاً وعلى توفير المعايش لأهل السودان وعلى إنقاذ الاقتصاد السوداني وتنميته وعلى إدارة شئون البلاد في نظام الحرية والديمقراطية.

لقد لجأ أيها الأحباب النظام كعادته لنكران الحقائق، وسيلجأ إلى القهر عن طريق

(١) سورة آل عمران الآية رقم (١٠٣)

إعلان حالة الطوارئ لاستخدام القوات المسلحة في مهام الحفاظ على السلطة. لقد زج النظام بالقوات المسلحة والقوات النظامية الأخرى في الدفاع عن حماقاته السياسية واستبداده.

هذه القوات من أبناء الشعب المظلوم الضائع قد آن لها أن تنفض يدها لكي لا تسخر في مصالح النظام وشهواته الانتقامية، إذ يريد أن يقبض الناس كالأرانب، وأن يقتلهم كالعقارب. آن الأوان ليثور الشعب والجيش وسائر القوات النظامية في حركة إنقاذ للإسلام وللسودان.

اللهم احفظ السودان والسودانيين، اللهم اخذل الظلمة المعتدين، اللهم ارفع بأهل السودان في ظل الحرية راية الدين، اللهم وفقنا لمسح دموع المستضعفين، اللهم ارحم شهداءنا، وادعم في طريق الحق خطانا. آمين.

اقتناع الفريق سوار الذهب

ضمن الاتصالات بكبار الضباط اتصل السيد الصادق بالعميد فضل الله برمة (قائد منطقة بحري الفرعية وقائد سلاح النقل يومذاك) والذي أظهر تعاطفاً مع الانتفاضة وأكد وقوف هيئة الأركان بجانب الشعب، وطلب منه السيد الصادق إقناع الفريق عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب وكان قائداً عاماً للقوات المسلحة منذ يناير ١٩٨٥م. قالوا له إن هيئة الأركان حزمت أمرها على الانحياز للشعب وسواء أقبلت أم لم تقبل سوف يحدث التغيير.

الفريق سوار الذهب كان قد اختير قائداً عاماً في فترة وجيزة بعد أن ظل النميري ممسكاً بالمنصب لثلاث سنوات كاملة، وذلك لأن سوار الذهب كان (رجلا مأمونا لا طموحات له، كان الجميع يطلق عليه لقب «مولانا» حتى الجنوبيين)[1] فهو باتجاهاته الدينية وشخصيته كان مأمون الجانب بالنسبة للنميري خاصة وقد بايعه إماماً.

ويشرح السيد السر أحمد السعيد وهو ضباط سابق بالقوات المسلحة موقف سوار الذهب قائلاً: في نهار الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥م وعند صلاة الجمعة في مسجد قيادة

(١) السر أحمد سعيد السيف والطغاة، ٢٠٠١، ص ٩٩

القوات المحمولة جواً، وقد رفع استعداد القوات المسلحة آنذاك إلى ١٠٠٪، وبعد أداء الصلاة والمسجد مكتظاً بالضباط والجنود، وكنت واحداً من الحاضرين، وقف الفريق سوار الذهب القائد العام للقوات المسلحة وألقى حديثاً طويلاً على المصلين مفاده أن الشريعة الإسلامية التي أعلنها الرئيس النميري ستبقى، أكد بوضوح أن الرئيس النميري الرجل الذي أعلن الشريعة سيبقى أيضاً، لأننا قد بايعناه على ذلك، وإن تحركات الشيوعيين في القيام بالمظاهرات وقطع الكهرباء والتخريب وخلافه لن تخيفنا. كان بادي الانفعال إلى درجة جعلت كل من بالمسجد يوقن أن الفريق سوار الذهب متمسك بقائده الأعلى، وأيما تمسك![1]

ولكن في ذلك اليوم الطويل الذي حق له أن يوصف بأنه أطول يوم في تاريخ السودان الحديث، حدثت أحداث كثيرة، فقد تحرك أعضاء مجلس القيادة بين القيادات المختلفة في المهندسين والشجرة وغيرها وتأكد لهم أن كل الوحدات في حالة أشبه بالتمرد، وتم الاتصال بهم من قيادة الانتفاضة السياسية، وفي النهاية لدى اجتماعهم بالقيادة العامة في السادسة من صباح السبت السادس من أبريل كانت مواقف سوار الذهب قد ماعت، وخرج قرار الانحياز من فم العميد عثمان عبد الله وقد أيده جميع القادة، وبين السادسة والسابعة صباحاً كتب العميد عثمان البيان الأول «بخط يده المتميز» و«بدأت محاولات إقناع الفريق عبد الرحمن سوار الذهب لإلقاء البيان باعتباره القائد العام، وبعد جهد استغرق ما يقارب الساعتين، وبعد استصدار فتوى له بأن بيعته لإمامة النميري باطلة من أساسها، وللحفاظ على وحدة القوات المسلحة، اقتنع بأن يذيع بيان نجاح الانتفاضة واضعاً النهاية للدولة المايوية. في صباح ذلك اليوم السبت ٦ أبريل ١٩٨٥م وفي حوالي سعت ٩١٥[2] منه وفي حوالي الأربعة دقائق ونصف تقريبا ألقى الفريق سوار الذهب بياناً مسح به ما يقارب الستة عشر عاما هي كل عمر النظام المايوي».[3]

(١) نفسه ص ١٠٤

(٢) هذه هي الطريقة العسكرية في كتابة الزمن، فسعت تعني الساعة، و٩١٥ تعني ٩:١٥ أي التاسعة والربع.

(٣) سعيد،سابق ص ١٠٨

هيئة القيادة كانت تتكون من الفريق سوار الذهب (القائد العام)، ونائبه (الفريق تاج الدين عبد الله فضل)، ورئيس هيئة الإدارة (الفريق بحري يوسف حسين)، ورئيس هيئة الإمداد (الفريق توفيق خليل)، ومدير فرع العمليات الحربية (العميد الركن عثمان عبد الله)، ومدير الاستخبارات العسكرية (العميد فارس عبد الله حسني).

اختار الفريق سوار الذهب ألا يكون طريداً كالمستشار، ولكن قيل إنه لم يكن راضياً بما اعتبره (حنثا للقسم وللبيعة التي في عنقه للإمام الهارب) وصام لله ثلاثة أيام تكفيراً عن ذنب تسليم السلطة للشعب! ويثبت هذه الأقاويل أنه حينما انقض انقلاب «الإنقاذ» على الديمقراطية في ٣٠ يونيو ١٩٨٩م ذهب للانقلابيين مباركاً وقال إن الوديعة أعيدت لأهلها! وبالرغم من ذلك اكتسب حمداً على فعل فعله مرغماً لا بطلاً!

بلا.. وانجلا

في صباح السبت السادس من أبريل أعلن الجيش إذن انحيازه للشعب، وخرج الشعب عن بكرة أبيه في مهرجانات الفرح.. قال شاعرنا الكبير سيد أحمد الحردلو، رحمه الله:

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

والبنوت زغاريدن تجيب الطاش

والخيل عركسن

والدنيا بوق ونحاس

والجنيات هديك

فى الساحة ختوا الساس

السودان خلاص يا السرة قام دواس

شد سواعدو تاني وشيد المتراس

***

طبل العز ضرب

والخيل تسابق الخيل

من آخر الجنوب لى عطبرة وتوتيل

يا شدر الهشاب قوم نمشى بحر النيل

يا لوز القطن قوم تانى فرهد وشيل

وأرقص يا نخيل فوق السواقى وميل

السودان خلاص داير السمح وعديل

كسّر قيدو تانى وقام جميل بالحيل

***

طبل العز ضرب

حيا عليك يا فلاح

والاذان نده حيا عليك يا صباح

شايل النور ومالى بالاغانى الساح

والظالم وقع

يا السرة داوى جراح

خلى الناس تنوم بعد الشقا وترتاح

***

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

شايل النور ومال بالاغانى الساح

والشارع مرق ثائر يسوى التاح

***

طبل العز ضرب

يا السرة قومى خلاص

حق الناس رجع

بى المدفع الرشاش

يا ويل من ظلم هذا البلد يا ناس

السوداني طيّب

الا كلو حماس

حين يزعل يخلي ديار عدوهو يباس

وقال شاعر الشعب محجوب شريف رحمه الله شعراً كثيراً عذبا منه:

بلا .. وانجلا..

حمد الله ألف على السلامة

إنهد كتف المقصلة

والسجن..ترباسو انخلع

تحت انفجار الزلزلة

والشعب.. بى أسرو اندلع

حرر مساجينو وطلع

قرّر ختام المهزلة

يا شارعاً.. سوّا البدع

أذهلت أسماع الملا

كالبحر.. دواي الجلجلة

فتحت شبابيكا المدن

للشمسِ واتشابا الخلا

ومنه:

يا شعباً لهبك ثوريتك

تلقى مرادك والفى نيتك

وعمق إحساسك بى حريتك

يبقى ملامح فى ذريتك

على أجنحة الفجر ترفرف

فوق أعلامك

ومن بينات أكمامك تطلع

شمس أعراسك

ماك هويّن سهل قيادك

سيد نفسك.. مين اسيادك ؟

ديل أولادك وديل أمجادك

ونيلك هيلك جرى قدامك

تحت أقدامك

رجع صداك وسجع نحاسك

وقال الأستاذ عبد الكريم الكابلي:

ليس في الأمر عجب

إنّه ما قد وجب

obeikan.com

في جمادى أو رجب

كلما القهر سلب

حق شعبي واغتصب

فوقه الشعب وثب

لهب اثر لهب

غضب تلو غضب

فتوارى وانتحب

ثم ولى واحتجب

وقال الشاعر الحبيب حامد عيشاب:

الشعب انتفض يا مايو وينو نميرك؟

أصبح فار وفز ياما فقدتي حميرك

لأنك كنت شلة وطايشة غاشة ضميرك

وقايلة الشعب ما بقدر على تدميرك

اتبجحتو بي قصة خرافة أب عاج

بقيتو لصوص ولي راحة البلد إزعاج

قبيل ما قلتو نحن نمور يا عجعاج

وكت الشعب نتر مالكم بقيتو نعاج؟

وفعلا.. كان ظلام أب عاج قد طال في ليل طويل مدلهم. ولم نستطع أن نحمده برغم الفجر الذي انبلج، مثلما فعل الشاعر الأستاذ أبو القاسم عثمان غداة ثورة أكتوبر إذ قال:

والشـــعب إن رام الحيـــاة عزيـــزة ... ونـت الصـخور ولانـت الأحجـار

إني حمـــدت الليـــل في إســـرائه ... فالليـــل آخـــره ضـــحى ونهـــار

رواية السيد الصادق للانتفاضة

وسرد الصادق أحداث الانتفاضة في مناسبات عديدة، انتخبنا منها اثنتين: ما ذكره في كتاب (الديمقراطية عائدة وراجحة)، وما ذكره في الذكرى الثانية للانتفاضة..

في كتاب الديمقراطية[1]:

(لقد اعتادت الحركة الطالبية السودانية أن تكون ضمير شعبها في السودان وكانت رأس الرمح في التعبير عن مواقفه يساعدها على ذلك حماسة الشباب ومثاليته، وتجمعها بأعداد كبيرة في مواقع الدرس والتحصيل ودور الجامعات والمعاهد.

إن لحركة الاخوان المسلمين باعاً طويلاً في العمل الطالبي، مما أدى لتبعية معظم الاتحادات الطالبية لها. هذه التبعية مكنت الأخوان المسلمين لبعض الوقت من تجميد دور الطلبة الريادي المعهود ازاء القضايا المصيرية.

وفي أكتوبر ١٩٨٣ م استطاع الطلبة الأنصار في جامعة أم درمان الاسلامية أن يكونوا تحالفاً طالبياً هزم الاخوان المسلمين، مزيحاً لهم من قيادة اتحاد الطلبة، فتم تكوين اتحاد طالبي من قوى هذا التحالف الجديد. فسير الاتحاد الجديد موكباً معارضاً للسلطة في ٢٦ مارس ١٩٨٥ م، فتحالفت مع هذا الموكب قطاعات أخرى من قواعد الطلبة والمواطنين فكانت رأس الرمح لانتفاضة رجب/ أبريل ١٩٨٥ م.

دعت نقابة أساتذة جامعة الخرطوم لموكب يبرز المعارضة للنظام في يوم ٣ أبريل ١٩٨٥ م واستجاب للدعوة عدد من النقابات المهنية، الأطباء، المهندسون، المحامون، البنوك، المحاسبون والصيارفة، وقبل خروج هذا الموكب أعلن النظام لموكب أسماه موكب الردع يوم الثلاثاء ٢ أبريل ١٩٨٥ م.

كان موكب الردع هزيلاً وكان موكب الأربعاء ضخماً عظيماً، اشتركت فيه النقابات المذكورة والأحزاب السياسية السودانية، وعندما تم بحث الدور السياسي المطلوب من موكب الأربعاء كان الرأي أن يكون:

أ-التوقيع على ميثاق وطني يضم كل القوى السياسية المشاركة في الموكب.

(١) الصادق المهدي الديمقراطية في السودان راجحة وعائدة

ب- إعلان إضراب سياسي يلتزم به ويعمل له الجميع حتى سقوط النظام المايوي.

وفي مساء يوم الثلاثاء ٢ أبريل كتبتُ بخط يدي مشروع الميثاق الوطني وقمتُ بتسليمه للسيد أمين مكي مدني فأوصله للآخرين حيث وافقوا عليه وتم توقيعه مساء الجمعة ٥ ابريل ١٩٨٥ م من قبل الاحزاب: حزب الامة، الاتحادي الديمقراطي، الحزب الشيوعي، نقابات: الأساتذة، المحامون، الأطباء، المهندسون، البنوك والصيارفة، والتأمينات. ثم انفتح الباب على مصراعيه ليوقع عليه آخرون من أحزاب ونقابات.

وفي يوم الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥ م اجتمع المصلون لصلاة الجمعة في جامع الهجرة بود نوباوي وهناك خطبتُ فيهم فقلت:

١ - لا عذر لأحد في سكوت على ما يحدث في السودان اليوم، وعلينا أن نتحرك جميعاً لإسقاط هذا النظام الظالم.

٢ - التزم الإضراب العام وتسيير المواكب ودعم التظاهرات وتأييد الميثاق الوطني الذي قدمناه للآخرين ومهرناه معهم.

٣- على القوات المسلحة والنظامية الأخرى رفع يدها عن النظام المايوي وأن تتحرك لإسقاطه مؤيدة الشعب ومنحازة لمواقفه.

وبعد الفراغ من الصلاة تظاهر المصلون في موكب كبير إلى قلب مدينة أمدرمان وقامت تظاهرات عديدة من أم درمان والحقيقة أن العاصمة كلها قد سيرت التظاهرات ضد نظام المخلوع.

ولم تكن الحركة عاصمية فقط فقد كان أول اقليم من السودان يحرك مواجهة العام الأخير من النظام المخلوع هو إقليم دارفور، ولعبت كذلك انتفاضة وموكب مدني دوراً هاما في محاصرة النظام.

وفي أوساط القوات المسلحة تمت تحركات وسط صغار الضباط لاتخاذ موقف موحد من الأحداث. وكان المرحوم فريق (م) محمد توفيق خليل قائد سلاح المهندسين يومذاك يدير حواراً معي نيابة عن زملائه حيث نقل إليّ بأنهم كقادة قرروا

تحديد موقفهم بعد تقييم موكب المعارضة (موكب الأربعاء) وموكب الردع الخاص بالاتحاد الاشتراكي والمقارنة بين الموكبين ومن ثم الانحياز للأغلبية.

وأوضح بأن صغار الضباط يمارسون ضغطاً على القادة للإنحياز للشعب، بينما القائد العام الفريق سوار الذهب ما يزال متردداً بسبب بيعته لجعفر نميري. فأرسلتُ رسولاً للفريق سوار الذهب ينصحه بالانحياز إلى جانب موقف الشعب السوداني لحقن الدماء أو التنحي، وأخيراً اختار الفريق الانصياع لرأي الأغلبية.

وفي مساء الجمعة ٥ أبريل ١٩٨٥ م قررت القوات المسلحة تأييد الموقف الشعبي بإجماع الرأي فيها، وهكذا في صباح السبت ٦ أبريل ١٩٨٥ م أعلنت قيادة القوات المسلحة إنحيازها لرغبة جماهير الشعب السوداني واستلام السلطة وخلع جعفر نميري والعودة إلى الديمقراطية).

في الذكرى الثانية للانتفاضة

وتحدث السيد الصادق كذلك كرئيس وزراء منتخب بمناسبة الذكرى الثانية للانتفاضة في ٦/ ٤/ ١٩٨٧ م ذاكراً أهم محطاتها كالتالي:

(لم يقف الشعب السوداني الأبي موقفاً سلبياً من هذا الطغيان الغاشم، بل تحرك متصدياً للغصب المايوي بألوان من المعارضة والمقاومة والرفض، في البداية كانت انتفاضة الجزيرة أبا وود نوباوي، الانتفاضة التي كتبت بدم الشهداء الطاهر رفض الشعب السوداني للنظام المايوي الزائف.

لقد سلط النظام الزائف على العناصر الشريفة التي هبت في وجهه نيراناً تسندها قوات أجنبية، فصمدت في وجهه ثم هاجرت من أرض السودان لا فراراً ولكن استعداداً لمنازلة أخرى.

لقد توهم النظام أنه بعد إخماد انتفاضة أبا ود نوباوي قد أرعب أهل السودان فاستباح لنفسه سياسات وتشريعات غوغائية ما لبثت أن أحدثت شرخاً داخل النظام فطفحت تناقضاته إلى السطح، ووقعت حركة ١٩٧١ م ومهما اختلف الرأي حول تلك الحركة فإنها عمقت تناقضات النظام ونقلت اليسار السوداني إلى صف المعارضة.

بعد ذلك اتجه النظام من الشرق إلى الغرب فكوفئ على ذلك بالمساعدة على التوصل لاتفاقية سلام مع حركة أنانيا الأولى في عام ١٩٧٢ م. لقد كانت الاتفاقية في حد ذاتها تنفيذاً لأسس توصلت لها الأحزاب السودانية القومية والإقليمية قبل الانقلاب، وكان من شروط الصلح أن يشمل دستور السودان المزمع إصداره على مقدار من الحريات الأساسية، وقد كان. فأطلق سراح من بقي في الحبس من القيادات الإسلامية والوطنية.

لقد استطاعت القوي الوطنية السودانية أن تستفيد من المناخ الجديد، فخططت لانتفاضة شعبان في سبتمبر ١٩٧٣ م. لقد كان طلاب جامعة الخرطوم رأس الرمح في تلك الانتفاضة وهبت معهم نقابات مهنية وعمالية فزعزعت أركان النظام الغاشم.

بعد انتفاضة شعبان اتخذ النظام إجراءات قمعية كثيرة، وأحكم بالقانون والأجهزة والسياسات منافذ العمل السياسي المعارض، فأدركت المعارضة للنظام أن العنف المايوي لا يصلح معه إلا معاملة من جنسه، لذلك بدأ التفكير في العمل العسكري الداخلي والخارجي.

أما الداخلي فقد بلغ ذروته في انتفاضة سبتمبر ١٩٧٥ م العسكرية. وأما الخارجي فقد بلغ قمته في انتفاضة يوليو ١٩٧٦ م.. الانتفاضة التي ترنح لها النظام الغاشم وكاد يسقط لولا أسعفته نجدة خارجية وأخطاء فنية وقعت فيها خطة الانتفاضة. وبعد إخفاق الانتفاضة استطاع النظام أن يكشف خطط المقاومة الخارجية عن طريق التحقيقات والمحاكمات والاعترافات. واستعان بها لتعطيل وسائل العمل المعارض الداخلي ولعزل المقاومة الخارجية، ولكن النظام مع هذا كله استوثق من قدرات المقاومة الخارجية فأراد أن يكسب الوقت بعرض مشروع المصالحة الوطنية.

لقد قبلت الجبهة الوطنية قائدة المقاومة للنظام المصالحة الوطنية كوسيلة ممكنة لتعديل الدستور في اتجاه ديمقراطي ولإلغاء قانون أمن الدولة، ولحل الاتحاد الاشتراكي وإعادة تكوينه بوسائل ديمقراطية. هذا إن نجحت المصالحة، وإن فاتها النجاح فقد قدرت الجبهة الوطنية أنها سوف تتيح الفرصة لبناء وسائل المعارضة داخل البلاد وتحرر الكوادر المحبوسة، وتتيح الفرصة لإزالة سوء التفاهم الذي وقع بين القوات السودانية المسلحة والجبهة الوطنية بسبب الأخطاء التي وقعت في خطة

الانتفاضة. وأهم تلك الأخطاء أن الانتفاضة كان متوقع لها أن تتم بمساهمة عسكرية محددة فاستغنى عن تلك المساهمة في المرحلة الأولى مما أتاح للنظام فرصة تصوير الانتفاضة كأنها استهدفت القوات المسلحة وهذا ليس صحيحاً.

تمت محادثات المصالحة واتفق على برنامجها ولكن النظام أدرك أن تنفيذه سيودي به فأخلف عهوده ولكن المحادثات والمخاطبات خلقت مناخاً سياسياً جديداً فتح مجالات لعمل المعارضة فاتسعت مجالات المعارضة السياسية داخل البلاد.

وطفحت إلى السطح بوضوح إخفاقات النظام فواجه مجموعة من التحركات المضادة:

- ففي عام ١٩٨٠ م وقعت انتفاضة كردفان.
- وفي عام ١٩٨١ م واجه إضراب نقابة السكة حديد وإضراب القضاة وانتفاضة دارفور.
- وفي عام ١٩٨٢ واجه انتفاضة الخرطوم وعدد من مدن السودان. الانتفاضة التي بلغت ذروتها بمواجهة قيادة القوات المسلحة للطاغية في فبراير ١٩٨٢ م.
- وفي عام ١٩٨٢ م واجه النظام مواقف رفض في الجنوب كان آخرها حوادث بور والبيبور التي تمخضت عن نشأة مقاومة جنوبية مسلحة.
- وفي عام ١٩٨٣ م تجددت مواجهة القضاة للنظام لرفضهم تطهيراً تعسفياً فرضه عليهم وحاول الطاغية الإفلات من مواجهة القضاة بإعلان ما سماه (الثورة التشريعية)، وادعى أنه سيطبق شرع الله، وهي حيلة التمسها النظام لتدعيم بطشه بقدسية الإسلام وإرهاب مخالفيه بأحكام الردة والبغي. ومنذ بداية الفرية رفضتها قيادة الجبهة الوطنية السودانية فأعلنت في أكبر تجمع شعبي في عيد الأضحى في سبتمبر ١٩٨٣ رفضها للافتراء على الشريعة، ولم تفلح الحيلة في إسكات المعارضة النقابية فزادت الإضرابات مثل إضراب المحاسبين والصيارفة وإضراب الأطباء والبياطرة والمهندسين وغيرهم. ولما لم تفلح العقوبات المسماة إسلامية في إخافة المعارضين أعلن النظام حالة الطوارئ وسمي تشريعاته إسلام الطوارئ لتوسيع شبكة البطش بالمواطنين دون التفات

لضوابط الشريعة ولا لشروط العدالة.

في عام الشريعة واجه أهل السودان ألوان المذلة والعقوبات المفصولة من ضوابطها الشرعية، وفي عام الشريعة مسك الله الغيث، ولبست الطبيعة ثوب حداد، فلا نهر ولا زهر ولا ثمر. وفي عام الشريعة انتزع طلاب جامعة أمدرمان الإسلامية قيادات الاتحاد ووضعوها في يد مجموعة مسلمة وطنية معارضة للنظام الغاشم تم ذلك في أواخر ١٩٨٤.

• وفي مارس ١٩٨٥ سار موكب عطبرة الشهير الذي تحدى النظام الغاشم. وبدا للطاغية أن يتوعد الحركة الطالبية فوعدها بالويل والثبور وعظائم الأمور فقرر طلبة جامعة أمدرمان الإسلامية بقيادة اتحادهم الجديد تسيير موكب معارض للنظام الغاشم في ٢٦ مارس فسار الموكب هادراً وتجاوب معه الشارع السياسي في أم درمان ثم سار موكب مماثل في الخرطوم يوم ٢٧ مارس. هذا الموكب هو الذي حصبت جماعاته عربة للطاغية المتجهة إلى المطار في رحلته الأخيرة.

• لقد تصدت قوات الأمن المايوي لمواكب أم درمان والخرطوم بقمع عنيف ظهر على جثث الشهداء وأجسام الجرحى، وكانت قوات الأمن لا تراعي حرمة المستشفى واستنكر ذلك أطباء مستشفى الخرطوم فأعلنوا الإضراب احتجاجاً يوم السبت ٣٠ مارس. هكذا بدأ العد التنازلي لسقوط النظام.

• ففي يوم السبت ٣٠ مارس سار موكب رهيب في مدينة ود مدني قوامه مجموعة من النقابات والقوى السياسية.

• وفي يوم الأحد ٣١ مارس دعا أساتذة جامعة الخرطوم لاجتماع أعلنوا فيه الإضراب المفتوح ودعوا لموكب يسير في يوم الأربعاء ٣ أبريل. هذا الموكب التفت حوله القوى السياسية والنقابية وأعلن فيه الإضراب العام والميثاق الوطني لإنقاذ البلاد.

• واستطاعت القيادة السياسية أن تنسق بين التحرك السياسي المعارض والقوات السودانية المسلحة التي أكدت أنها في حالة استقطاب بين الطاغية والشعب فموقفها إلى جانب شعبها.

• *لقد أكد موكب الأربعاء تجمع الشعب السوداني ضد النظام الغاشم وزاد الموقف وضوحاً موكب المعارضة الذي سار في أمدرمان في يوم الجمعة الخامس من أبريل. الموكب الذي صحبه نداء واضح للقوات المسلحة للتدخل وحقن الدماء وحسم الأمر لصالح الشعب، وقد كان.*

هكذا وفي أرض السودان الطيبة تكامل العطاء السياسي والنقابي والعسكري وقذف بالنظام المايوي في مزبلة التاريخ.)

***

من جديد يقود السيد الصادق ثورة شعبنا البطل مع غيره من الشرفاء، ويأتي ومن خلفه رصيد من النضال كبير، وقد قوي عوده وسطعت شمسه في سماء السياسة السودانية تقتبس الأقمار من ضياها، ولا ينكرها إلا من به رمد!

في الجزء التالي من هذه السيرة والمسيرة نتابع خطواته إبان الديمقراطية الثالثة تحت عنوان (الصادق أمل الأمة.. ولكن!)

فكونوا معنا.. بتعبير فضائيات هذا الزمان..

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.